

القاهرة،  
كانون الثاني ٢٠٢٠

بسمه الشريف

لم أتخيل قط أن الحديث عن الأمومة سيكون مدعاة للتباين الشديد في الآراء، وأني لن أرغب في الحديث بالنيابة عن سيدات أخريات، أو عن الرجال في العموم، أو الزوجين من نفس الجنس، أو الأطفال الذين بدون أمهات، أو الأمهات العازبات، أو العائلات متعددة الأزواج. وكل جنين فريد من نوعه مثله مثل الجسم الذي يحمله والحالة الاجتماعية الاقتصادية التي سيؤكّد فيها. ومع هذا فإنني أشعر بكثير من اللامثنتان، وأنا على علمٍ بالصراعات المشتركة، وكذلك البهجة الموجودة، بعيدًا عن خبرتي. وبعد معاناة دامت أشهر مع عدة نسخ من هذا النص، أدركت في النهاية أن المشكلة لم تكمن فيما سأقوله (لأن هناك الكثير مما قد يقال)، ولكن في كيفية قوله.

في بداية الحمل - وأثناء الأرق وحرقة المعدة وهذيان الحمل - بدأت أكتب عن زجاجة مشروب أوزو، كنت اشتريتها من السوق الحرة بمطار أثينا في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل. وكان على الزجاجة ملصقٌ عليه صورة امرأة شابة حافية القدمين، صهباء، مبتهجة، تدور بتنورتها البيضاء وترتدي بلوزة حمراء ضيقة. ولكنني حينما أدت الزجاجة، رأيت صورة ظلّية بالغة الصغر لامرأة حامل، شعرها في هيئة ذيل حصان (دائمًا ما يكون شعر المرأة في هيئة ذيل الحصان) تقرب كاسًا من النبيذ إلى فمها، هذه المرأة الحزينة الصغيرة التي تحاول أن تستمتع بشراب في الظلال، لا تدرك أن على بطنها دائرة وخطاً أحمر مشؤومين. ومع أنني لا أقرأ اليونانية، أيقنت تمامًا أن ما تحت الرسم التخطيطي لم يكن إلا نسخة من تحذير «من أجل سلامتك لا تشربي أثناء الحمل». وطوال الأشهر الثلاثة الأولى للحمل، عبّرت الصورتان عن عالم مليء بالقيود، وغياب الأدلة العلمية الذي وقعت فيه بشكل غير متوقع، والعالم الذي لم أدرك أنني تركته خلفي: الأداة الجنسية مقابل رمز الأمومة. فكان يُقال لي إنه يجب عليّ تقبل أنني تحولت رسميًا إلى صورة ظلّية عالقة وراء خط أحمر على ظهر زجاجة أوزو؛ لأنني أحمل طفلًا في بطني (طفلًا اخترت أن أحمله). وبغض النظر عما إذا كنت أشبه المرأة التي على الجزء الأمامي من الزجاجة، أو أنني أؤمن بالتحذير الذي على ظهرها؛ فهذه هي الطريقة التي يرى بها المجتمع المرأة في العموم. (أو أهم من ذلك، طريقتهم للنظر لأجساد النساء، لأننا لم نعترف بعد أن المرأة تستطيع أن تصبح شيئًا ما خارج ما يمكن لجسدها أن يفعله أو يقدمه). وقد حاولت أن أتخيل أيقونة تمثل امرأة لا تعرّفها حدود ومسؤوليات أعضائها الجنسية، ويمكنها قراءة حقائق موضوعية قائمة على الأدلة، واتخاذ قرارات مستنيرة ومتعلقة بحياتها الشخصية، ورحلتها مع الأمومة، دون موافقة المجتمع الذي تعيش فيه أيًا كان هذا المجتمع.



لا تُمنح النساء الثقة لاتخاذ قرارات تتعلق بأنفسهنّ، لا في الغرب، وقطّعا لا في القاهرة، فحين حملت حملاً عن طريق الخطأ بعد شهرين من قراري بالعيش في القاهرة بدلاً من لوس أنجلوس؛ كان أمامي الاختيار بين مدينتين، بهما زحف عمراني مع تفاوتات اقتصادية صارخة، وصيف جاف وشديد الحرارة، وتوقعات قمعية - لأسباب مختلفة - حول ما يجب أن تكون عليه المرأة. وقد فقدت الأمل في محاولات كتابتي عما يعنيه قرار إنجاب طفل لفنانة في بلد مليء بالخلل، بعد أن قرأت كتاب آدرين ريتش عن المرأة المولودة: الأمومة كتجربة ومؤسسة (Of Woman Born: Motherhood as Experience and Institution). ويغطي كتاب ريتش الذي نُشر عام ١٩٧٦ جميع جوانب حمل الأطفال - وهو ما يجب أن يكون اختياراً لا ضرورة - ومدى جدّتها وصعوبتها، وهو توجيه ومسؤولية حُرمت منها النساء بالكلية. ويستطرد ريتش شرحه عبر بحث تاريخي، أنثروبولوجي، اجتماعي، طبي، وحتى نفسي شامل، ناسجاً في الوقت ذاته سيرته الشخصية وأفكاره في الكتاب. هذا الكتاب هو بلا شك أحد أهم الكتب التي قرأتها، ويجب في رأبي أن تكون قراءته إلزامية.

عندما حملت، شعرت بعكس شعور «التمكين» الذي أخبرني عنه جميع كتب العصر الجديد الفاخرة حول الحمل. حاولت العثور على ما يقرأه غير الغرب وغير المتحدثين باللغة الإنجليزية بعد ولادتهنّ. ولكن يبدو أنه نوع أدبيّ متخصص للغاية، حتى إنني لم أعتز على كتب خارج الهيمنة الثقافية الغربية إلا وكانت دراسات أنثروبولوجية.

وعلى الجانب الآخر، كانت الكتب الإنجليزية حول الأطفال خليطاً من الملصق التحذيري - يشبه الذي على زجاجة مشروب أوزو-، والدليل الاستهلاكي حول كيف تدلّين نفسك بمرتب زوجك المكوّن من أرقام خيالية. وشعرت أن هذه الكتب تدعوني على الدوام للاسترخاء، بينما -وفي الوقت ذاته- تخبرني بجميع الأشياء المرعبة التي قد تحدث لي

ولطفلي غير المولود بعد. وكان شعور التمكين هو الشعور الذي تم كبنه مرارًا وتكرارًا. فبدأ لي الأمر وكأن شريحة الدخّل التي أنتمي إليها هي التي ستحدّد نوع الحمل الذي سأمرّ به، وأن الطبيب الخاص بي هو الذي سيحدّد في النهاية نوع الولادة التي سأخضع لها. وكأنّ العالم من حولي، وعلى الإنترنت، يقرر أنه إذا كنتِ امرأة حاملًا؛ فأنتِ تبعًا لذلك ضعيفة وهشّة للغاية، وغير جديرة بالثقة عندما يتعلق الأمر بمسؤولية الحمل، إلى درجة أنه لا أحد يخبرك بالحقيقة حول ما هو مؤدّ حقًا أو غير مؤدّ لك ولطفلك. بل وعلى العكس، تتوفر لك معلومات تتعامل معك بدونية، بالإضافة إلى إرشادات يكاد يكون من المستحيل اتّباعها، مع تذييل نهائية كل نصيحة - لا محالة - بجملة: عليكِ استشارة الطبيب الخاص بكِ.

ولطالما حرص المجتمع الأبوي كل الحرص على أن يسرق من المرأة ما يستطيع سرقته من إرادتها الحرة؛ لأنّ هذا المجتمع لديه رهبة من قوة المرأة في هذه القدرة والتجربة. وبالتأكيد أنا أشير إلى المجتمع الأبوي بهذه العبارات العامة لأننا جميعًا نعلم أنه موجود مثله مثل تسريب الغاز في غالبية المجتمعات. وبالرغم من هذا، وبعد كثير من التنقيب والبحث، عثرت بالصادفة على دليل يصف بلغة غير متعالية المخاطر الشائعة، والمرتبطة بكل شيء، بداية من تعاطي المخدرات والجنس والتمارين الرياضية، ووصولًا إلى وضع الفرج، والتغوط أثناء المخاض والولادة، تحت عنوان: الحمل بدون ذعر (٢٠٠٤) لمايكل س. برودر (The Panic-Free Pregnancy).